اسطورة أو « ملاكا » · يتحرك بخصائص فوق ـ انسانية ، ويـــدور في حقل خاص لا يستطيع الانسان العادي الوصول اليه · لنر ما هي سمات « الشيخ » :

ـ « أصبح الشيخ لافي كلما أتى على ذكر السيدة خديجة يصمت ، ثم يغيب وعينـــاه تلمعان **صبابة** ، وكأنه **يقص حكاية تناسخت معه منذ الازل** » ص ١٢ ·

ـ « عيناه لا تزالان **معلقتين في البعيد** وكأنه كان يتلقى**ما ينشده من وحي ينزل عليه** » ص ١٣ ·

ـ « كان يصغي **لصوت بعيد** يناديه من **أعماق مغارة** سويد في قمة الجبل » ص ١٥ ·

ـ « انه لم يسمع الشيخ لافي يتأوه ولو لمرة واحدة » ص ٢٧ ·

ـ « استدار بفرسه واندفع بها نحو **مغارة** سويد ، **وعباءته** تخفق **كالبيرق** مع الريحـة خلفـه » ص ٣٤ ·

ـ « واختلفت الروايات في قرية البارد بعد ذلك اليوم ، حول **اختفاء** الشيخ لافي الملك » ص ٤٢ ·

« الشيخ لافي » يحايث ، اذن ، الحركة التاريخية ، يختفي ويعود ، يتوارى ليرجع من جديد · فهو حاضر ابدا : « ان الشيخ لافي الملك ، لا يزال يحارب الباشوات والانجليـــز واليهود في الجبال ، ولا بد أن يعود يوما بعد أن يهزم الاعداء وينتصر » ص ٨ ، يتداخل مع الحركة التاريخية كروح مطلقة مرتبطة بالمطلـــق ، ويدور في فضـــاء « الازل » ، و « البعيد » ، « الوحي » ، و « الاعماق » ··· صوفية كاملة دائمة التجدد ، تعبر عن ذاتهـا في حركاتها ، وفي مسارها المنتصر على الصعاب أبدا ، وفي حبها لـ « خديجـة » الذي ينطن بـ « الاشراق » ، و « الصبوة » ، و « التجلي » ·

وهكذا فان توفيق فياض ينجح في رسم بطله كـ « كلية » بلا تناقض ، حيث تترابـــط الامور وفق منطق متسق يتلاحم فيه الزمان والمكان والذات والحركة ، لكن هذا المنطق لا يلبث ـ للاسف ـ أن يكبو ، فينكسر منطق الحدث وتهتز « الكلية » ، وننتقل من عالم الى آخر · **ينقل الكاتب « بطله »** ، وبلا مقدمات ، من مستوى **البطل الملحمي** ، الى مستـــوى **البطل الاشكالي** أو البطل **ثنائي القيمة** · يصبح « الملك » رجـلا عاديـا ، ويغـدو المتسق متناقضا ، ويمسي « الاشراق » و « الصبوة » مشاعر عادية تخضع للزمـــان والمكان · يتنزل « البطل » من مكان الى مكان ويتنزل البناء الفني أيضـــا من مكان الى مكان ، فيتراجع العمل الفني مكسورا :

ـ « يشده « الملك » من اذنه قائلا « وأنا اشعرفني يا حريق الوالدين » ص ٢٠ ·

ـ « تفشت **التآليل** في جسده » ص ٢٧ ·

ـ « اقترح عليه حسن ان **يسأل واحدا من أهل العلم** » ص ٣١ ·

ـ « وحين اقترح عليه الدراويش سجنهم ، أجاب بحدة ، ان « اقلعوا السن واقلعـــوا وجعه معه » ، حالفا بالطلاق ثلاثا كلما حلت تحرم » ص ٣٧ ·

يحيل هذا الانتقال من **مستوى الكامل** الى **مستوى الناقص** « البطل » الى بطلين ، بطل كان في البدء ملحميا ذا خصائص معينة، ثم اصبح فيما بعد اشكاليا ذا خصائص مغايرة·